

قراءة القدس في المسيحية والإسلام : بعض العبر للمستقبل من الماضي

أ. كارين أرمسترونغ(*)

إنها لمأساة دائمة أن تكون القدس، المدينة التي يوقرها ويحبها كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين معتبرينها «مدينة السلام»، عبر تاريخها الطويل والمعقد مدينة الحرب خصوصاً اليوم أكثر من أي وقت مضى حيث باتت تشبه مدينة حدودية يسودها العنف والنزاع بدلاً من أن تكون مكاناً للحج. فأيام الأعياد الرئيسية في الديانات الثلاثة تتسم بتعزيزات لشرطة الشغب الذين يحملون البنادق والقنابل المسيلة للدموع فيما تحوم الطوافات العسكرية بأصواتها المدوية المزعجة فوق الرؤوس. والمستوطنون اليهود الذين يرتدون رداء الكيبا (Kippa) المحاك كعلامة على التزامهم الأصولي المتطرف، يطوفون الشوارع الضيقة للمدينة القديمة وهم يستعرضون بنادقهم ورشاشاتهم علناً.

ومنذ توقيع اتفاقية أوسلو شهدت المدينة هجومات انتحارية مكثفة بالقنابل ومزيداً من مصادرة الأراضي وجرف البيوت الفلسطينية. وباتت القوانين المتعلقة بتصاريحات الإقامة للسكان الفلسطينيين في القدس أشدّ صرامة وتشدداً مما دفع بكل من مجموعتي حقوق الإنسان الإسرائيلية والفلسطينية بأن تصف الإجراءات الجديدة بأنها وصلت حدّ سياسة «الإبعاد» الهادفة إلى تخفيض عدد الفلسطينيين المقيمين في المدينة.

وحيث إن المستقبل السياسي للقدس هو موضوع صراع وخصام مريع، ضمن السخرية المؤكدة أن تكون الحقيقة الوحيدة التي يتفق حولها كل المتخاصمين المتنازعين سواء أكانوا من اليهود أو المسيحيين أو المسلمين هي أن المدينة «مقدسة» بالنسبة إليهم.

(*) أستاذة وباحثة إنكليزية في اللاهوت - لندن

وكيف يمكن لمدينة تثير مثل تلك القسوة والظلم أن تكون مقدسة؟ وحيث أن كلّ الأديان التوحيدية الثلاثة تلتزم بمبادئ الخير والعطف والحنوّ فكيف يمكن لمدينة تعجّ بكل تلك النشاطات غير المقدسة أن تكون مقدسة؟

يخبرنا المؤرخون أن الحجّ والإخلاص والتفاني للأماكن المقدسة لربما يكون أقدم ممارسة دينية في العالم وأكثرها عالمية⁽¹⁾. إذ يبدو أنها متجذّرة بعمق في النفس الإنسانية لتساعدنا على أن نجد مكاننا الحقيقي في العالم. وعندما يصلي اليهود والمسيحيون والمسلمون وهم يديرون وجوههم باتجاه القدس أو مكّة، فإنهم يبتعدون عن مشكلات حياتهم وانشغالاتهم في حياتهم اليومية ليجدوا توجيهاً ويركزوا على القيمة العليا واضعين في منظورهم أشياء أخرى.

فبالنسبة إلى اليهود والمسيحيين والمسلمين كانت القدس مكاناً محدّداً. وقد أصبحت حاسمة لهوية كلّ ديانات إبراهيم الثلاث. وزار الحجاج القدس طوال قرون ليتصلوا بالاتجاه الأعمق للوجود وليجدوا الشفاء والسلام. وكانت القدس، مثل أي مكان مقدس، موقعاً يلاقي فيه الناس الله وتثري الموسيقى والطقوس هذه التجربة. ولطالما ولّدت الهندسة المعمارية لأماكن العبادة في القدس رمزياً تلك الرحلة الداخلية التي يقوم بها المتعبّد ليصل إلى الله. فالأسطورة المتعلّقة بالأماكن المقدسة ترتبط عادة بقصة العصر الذهبي الذي تعتقد كلّ الثقافات بأنه كان موجوداً عند مطلع الزمن حين كان الرجل والمرأة يعيشان بانسجام مع بعضهما ومع الطبيعة ومع المقدّس. إن تلك الأسطورة العالمية الموجودة في كلّ الثقافات تتحدّث عن السلام والكمال اللذين طالما شعر الناس بأنهما الظرف الإنساني الأمثل. وهناك شعور بأن الحياة لم يقصد بها أن تكون أليمة ومتضاربة⁽²⁾.

وعندما قال كلّ من اليهود والمسيحيين والمسلمين إن القدس أو مكّة تحتل مكانة جيّة عدن، فإن ذلك ليقولوا إن تلك الأماكن الأكثر قدسية تقدم نوعاً من الانسجام البدائي الفردوسي الذي يسمّى ويميّز عادة اللقاء مع الله. ولهذا سمّيت القدس مدينة السلام :

(1) Mircea Eliade, *The Sacred and the Profane*, Trans, Willard J. Trask, New York, 1959; *Patterns in Comparative Religion*, trans. Rosemary Sheed (London, 1958), 1-37; 387-88.

(2) Eliade, *Patterns of Comparative Religion*, 382-85.

عندما زار كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين المدينة كانوا دائماً يشعرون بأنهم استعادوا أنياً الكمال البدائي وعادوا إلى الانسجام والوحدة التي ترتبط بتجربتنا مع المقدس ولا سبيل إلى فكها أو الخروج منها. إن انطباع العودة إلى الكمال الأصلي هو عنصر حيوي في تجربة قداسة القدس.

إذن، لماذا يتفجر السلام عنفاً؟ تبرز المشكلة عندما يشعر الناس بالنزعة القومية للتملك المتعلق بالقدس وقداسته العظيمة مما يدفعهم للرغبة في التفرد بامتلاكها. وللمشكلة، بالتأكيد، بُعد أخلاقي. وهذا يصح أيضاً على التفاني من أجل المدينة. فليس كافياً أن تملك موقداً دافئاً هناك. فذلك ينبغي أن يترجم إلى عمل أخلاقي. إن الوحدة والانسجام ينبغي ألا يبقيا ترفاً خاصاً، بل أن يتم التعبير عنهما في الحياة الاجتماعية في المدينة بكل الطرق العملية. فمنذ القدم، يبدو أن الإعجاب بالقدس إلى حدّ العبادة كان مرتبطاً بالبحث عن العدالة الاجتماعية والمطالبة بها. لذا، فإن الأنبياء وناظمي المزامير في الإنجيل اليهودي ألحوا تكراراً على أن القدس لا يمكن أن تكون مدينة، مقدسة للـ (شالوم) وهي (تترجم عادة بكلمة «السلام» لكنها تتضمن معنى الكمال الذي يختبره الناس في الأماكن المقدسة) إن لم تكن أيضاً مدينة العدل⁽³⁾. ولا يستحسن أن تتعبد لله في هيكله في القدس إن لم يكن شعب إسرائيل يتعاطف مع الفقير وغير الحصين والمضطهد.

وهذه نقطة مهمة. إن إحدى أسوأ الفظائع في تاريخ القدس الطويل والمأساوي حدثت عندما شعر الناس بشدة احتلال المدينة المقدسة لدرجة أنهم وضعوا كل رغبتهم في الحصول على مدخل إلى قدسيته قبل انشغالهم بالعدل والمساواة. إن قداسة القدس ليست جائزة للحصول عليها بل عمل ملح وقويم. إنها دعوة أبدية سرمدية لإيجاد عدالة الله على الأرض من جديد. ورغم طهارة وقدسية معابدها العظيمة، فإنه من الممكن جعل المدينة مقدسة أو غير مقدسة يومياً بحيث يحيا سكانها بدرجة هذه الرؤيا للمساواة والأصول الاجتماعية.

(3) Psalms 72:4; 9:10-16; 48:8; Isaiah J. See also Norma Cohn, *Cosmos, Chaos and the World to Come: The Ancient Roots of Apocalyptic Faith* (New Haven and London; 1993), 88-89.

وباللغة العبرية فإن كلمة «مقدس» (guddosh) تعني «يفصل». واليهود يحتفلون بطهارة الأشياء عن طريق فصلها بعضها عن البعض الآخر : فهم يفصلون الحليب عن اللحم، والسبت عن باقي أيام الأسبوع، واليهود عن غير اليهود. لذا فإن المقدس يُستخرج وحده ويُقسَّم كلياً عن الدُّنس. وبطريقة مماثلة، فإن قداسة القدس اختُبرت كسلسلة من عمليات الفصل والعزل المتدرّج. فلا يمكن لأي يهودي أن يدخل منطقة الهيكل إلا إذا مرَّ بعدد من طقوس التطهير التي تفصله عن الجنس البشري والفنائية والدنس الذي يسمُّ الوجود اليومي.

لقد تم تصميم الهيكل بشكل فناءات وساحات مترابطة كل واحدة أكثر قداسة من التي سبقتها وكلّ واحدة بالتالي محظورة عن عدد متزايد من الناس. وعلى الحافة الخارجية للقداسة يأتي فناء غير اليهود على حدود الفناء المقدس. وقد منعت العبارات المنقوشة غير اليهود من التقدّم إلى الفناءات المقدسة تحت طائل الموت. ثم يليها فناء النساء، وهنّ كغير اليهود، استثنى من عالم اليهود الداخلي المطهر. أما الذكور اليهود الذين هم بحالة طهارة الطقوس فبإمكانهم أن يتقدّموا إلى فناء الإسرائيليين حيث يتمكّنون من مشاهدة الاحتفالات ولكنه لا يمكنهم الدخول إلى فناء الكهنة الذين هم من أحفاد آرون وزادوك. ولا يمكن للرجال العاديين أي غير الكهنوتيين أن يدخلوا قاعة العبادة والهيكل الذي يخدمه الكهنة والذي يؤدي إلى قلب المعبد، قدس الأقداس، وهي غرفة فارغة معتمة ممنوعة عن الجميع ماعدا الكاهن الأعلى، الذي يدخل إلى الحرم المختلى مرة في العام في عيد الغفران (Yom Kippur)(4).

والمسيحيون أيضاً كرّسوا رؤيا متفرّدة لقداسة القدس مبنية على العزل، إلا أنهم خلال القرون الأولى من تاريخهم لم يبدوا اهتماماً كبيراً بالقدس. وقد كانوا يؤمنون إن القدس ليست مدينة مقدسة بل فعلياً مدينة مذنبه لأنها رفضت المسيح وكانت مسؤولة عن موته. وكادوا يظنون إنهم يطوّرون ديانة عقلانية متطورة ليست بحاجة إلى التحمّس للأماكن المقدسة. فاليهود والوثنيون فقط اعتقدوا أنه من الممكن أن تجد الله في مغارة معتمة أو مبنى بشري : ولو لم يكن المسيح علّمهم إن المسيحيين يمكنهم لقاء الإله في أي

(4) Mishnah Kelim 1:6-9.

مكان، في الروح وفي الحقيقة وليس ببساطة في الجبال المقدسة أو المدن المكرسة لعبادة الآلهة؟⁽⁵⁾.

إلا إن ذلك تغير في مطلع القرن الرابع، عندما اعتنق الامبراطور قسطنطين الديانة المسيحية وجعلها إحدى الديانات المسموح بها للامبراطور الروماني. وكانت روما تطارد المسيحيين وتمنعهم من بناء الكنائس أو شراء الممتلكات، إلا أنهم تحت حكم قسطنطين بدأوا يشغلون مناصب مهمة وكبيرة. ورغم حماسه الشديدة للمسيحية بقي قسطنطين وثنيًا في قلبه ولم يشترك في ازدياد الأماكن المسيحية المقدسة. فأعطى أوامره بأن يقوم الأسقف مكاروريوس في القدس بالتنقيب عن قبر المسيح الذي كان قد دفن، كما تقول الأسطورة المحلية، تحت معبد أفروديت الوثني. فهدم المعبد وأزيل وأجريت الحفريات تحت أساساته وكانت عملية ضخمة استغرقت مدة عامين وأثارت سكان القدس الوثنيين الذين كانوا يشكلون أغلبية في المدينة. وكانوا بالطبع يكرهون أن يروا إحدى أبرز معابدهم يهدم ويزال على يد امبراطور مسيحي. وفي عام 327م. رفع التراب أخيرًا عن قبر صخري صغير، مع تلة صغيرة عرفت مباشرة بأنها الجلجلة، تلك التلة الصخرية التي صلب عليها المسيح.

إن هذا الاكتشاف الأثري الأركيولوجي أذهل العالم المسيحي برمته. وبعد أقل من ست سنوات بدأنا نسمع عن حجّاج يأتون من أمكنة بعيدة مثل فرنسا - وهي رحلة طولها ثلاثة آلاف ميل - منجذبين إلى القبر بشيء كأنه المغنطيس. فالقدس لم تعد المدينة المذنب، بل أصبحت مركز الديانة المسيحية. وطوّروا المسيحيون ديانة مكتملة للأماكن المقدسة. وبدأوا يحولون طوبوغرافية القدس الوثنية عن طريق خلق وقائع بشكل كنائس ومعابد وأديرة في مشروع تعمير وإنشاء ضخم عملت العائلة الامبرطورية على تمويل جزء كبير منه. وبدأ الرهبان يستقرون في صحراء يهودا لقربها من القدس. ومثلهم المستوطنين اليهود في الضفة الغربية اليوم، يعتقدون إنهم يحققون النبوءات القديمة التي تقول إن شعب الله سيرجعون يومًا ويجعلون الصحراء تزهر، وأن وجودهم سيعجل بمجيء اليوم الآخر. والحجاج أيضًا جاؤوا من مختلف أرجاء العالم فكانت

(5) Melito, "Paschal Sermon;" Origen, *Against Celsus* 3:34; 7:35; *First Principles*, 4:2:1; Eusebius, *Proof of the Gospels*, 3:2810;5:6; Preface, 1-2.

الشوارع أيام الأعياد الرئيسية تعجّ بالمصلّين المحتشدين الذين احتلّوا المدينة بأسرها. وكانوا يتحدثون عن السلام الفردوسي في القدس وأعلنوا أن المدينة قد بنيت على أرض جنة عدن وأن الإنسانية خلقت وتم خلاصها من قبل المسيح من تلك النقطة المقدّسة. وفي القدس يشعر الإنسان أنه أقرب إلى الله منه في أي مكان آخر على وجه البسيطة⁽⁶⁾.

وهناك أوجه شبه مذهلة مع الاكتشاف اليهودي للقدس بعد حرب الأيام الستة في عام 1967. فالصهيونية كانت بدأت كحركة علمانية عموماً. وبعد تأسيس دولة إسرائيل في عام 1948 كان توجه الحياة السياسية الإسرائيلية علمانياً واشتراكياً فهو لم يكرّس سوى وقت قليل للدين التقليدي. ولم يكن أبطال الصهيونية العماليين من علماء التلمود الذين يدرسون في المدينة المقدّسة، ولكنهم كيبوتسيون في المزارع الجماعية في الخليل والنقب. وكان كل اليهود يفضلون - وما زال معظمهم يفضل - أن يعيش في حاضرة تل أبيب. إلا أن ذلك كلّهُ تبدّل بين ليلة وضحاها بعد احتلال الإسرائيليين للقدس الشرقية والمدينة القديمة عام 1967. وفي يوم الفتح قبل الجنرالات الملحدين بعضهم بعضاً عند الحائط الغربي (وهو ما تبقى من الهيكل اليهودي) الذي كان خاضعاً للسيطرة الأردنية طوال عشرين عاماً، وتعلّق الجنود الشبان الأشداء بحجارة الحائط وبكوا. وأخذ السياسيون العلمانيون مثل ليفي أشكول رئيس الوزراء وموشيه دايان يتحدثون طوال ساعات عن «قداسة» القدس ويُقسّمون ويتعهّدون بالآيتركوا المدينة ثانية.

ومع نهاية حزيران / يونيو ثبّتت الحكومة الإسرائيلية الضمّ السياسي للمدينة استعداداً لتحدي الرأي العام العالمي حيث إن القدس رسمياً ما تزال معتبرة «كياناً منفصلاً» حسب قرار الأمم المتحدة الصادر في عام 1947.

إن أوجه الشبه مع التجربة المسيحية ذات دلالة، فمثل اليهود، اعتقد المسيحيون الأوائل إنهم تخطّوا الأمكنة المقدسة لكن المفاجأة أخذتهم عندما اجتمعوا ثانية بتذكّار ربطهم بماضيهم الأكثر قداسة. وكاليهود، كانوا قد حصلوا مؤخراً على سلطة سياسية جديدة وأهمية: إذ أصبحت ديانتهم الآن ديانة رسمية (Religio Licta) وسوف يعمل خلفاء قسطنطين على جعل المسيحية الديانة الرسمية لروما. وكاليهود، بدأ المسيحيون

(6) Cyril of Jerusalem, "Catechetical Lectures," 3:7; 17:13; 13:30; 19:22; 14:16; Sophronius, *Anacreontics*, Canto 20.

يطوّرون جغرافية مقدّسة كي تشفي الجرح السابق وتستوعب رهاناتهم الجديدة في هذا العالم. فكل من اليهود والمسيحيين شاهدوا أنفسهم في الآثار المقدسة الباقية من الماضي. اليهود تماثلوا وتطابقوا مع الحائط، فهو مثلهم كان باقياً: لقد صمد عبر ألفي سنة من التاريخ المضطرب وأحياناً الدموي في القدس. وفي عام 327 رأى المسيحيون قبر يسوع خارجاً من حفرة ومن بين ركام المعبد الوثني كرمز لتجربتهم: كانوا يشهدون انتصار عقيدتهم على الوثنية القديمة التي سعت إلى طمسهم وإزالتهم.

هكذا تكون الحالة عادة في مدينة مقدسة، فالناس لا يختبرون ربهم فحسب بل إنهم يقيمون لقاء مؤثراً مع أنفسهم ويتطابقون مع هذه المواقع المقدسة على مستوى عميق. وهذا يجعل الموضوعية مستحيلة، ويجعل الناس يشعرون بتهديد عميق عندما يحسون إن أماكنهم المقدسة معرضة للخطر. وللأسف، فإن بناء ذات جديدة يتضمن أحياناً تدمير الأعداء الذين يظهرون تهديداً لها.

ففي عام 1967، تبع الفتح الإسرائيلي للقدس، مباشرة تقريباً، تدمير حيّ المغاربة القديم، وهو أحد أقدم الأوقاف في القدس منذ زمن صلاح الدين. إن اكتشاف قبر المسيح عام 327 كان يعني تدمير هيكل أفروديت الوثني. أما يوسيبوس، أسقف سيزاريا، والمستشار الديني لقسطنطين فقد رأى بالتأكيد أن ظهور القبر كان رمزاً لانبعاث المسيحية وولادتها من جديد وانتصارها الوثني⁽⁷⁾؛ وقد رأى أيضاً أن هدم وإزالة الهيكل الوثني وبناء كنيسة مسيحية جديدة على موقع القبر هو جزء من الحرب المقدسة ضد الوثنية⁽⁸⁾.

وكنيسة القيامة الجديدة ترمز أيضاً، حسب رأيه، إلى هزيمة اليهودية على يد المسيحية. فمن موقعها العالي على التلة الغربية للقدس تطل على بقايا حطام الهيكل اليهودي الذي دمره الرومان عام 70م. وقد ترك المسيحيون جبل الهيكل ركاماً وحطاماً طوال فترة الحكم البيزنطي لأنه يرمز إلى انتصار المسيحية على اليهودية. فهم لم ينسوا أن القدس اليهودية رفضت المسيح وإن هزيمة اليهودية وإذلالها على أيدي الامبراطورية الرمانية (التي باتت الآن مسيحية) بنيت على طوبوغرافيا القدس البيزنطية نفسها.

(7) Eusebius, *The Life of Constantine*, 3:28.

(8) Ibid, 3:26-27.

وكان المسيحيون يحبون أن يتسلقوا منحدرات جبل الزيتون وسفوحه وأن ينظروا إلى أسفل حيث الهيكل اليهودي المدمر ويقرأوا تلك المقاطع من الإنجيل التي يتنبأ فيها المسيح بدمار القدس اليهودية⁽⁹⁾. ولم يسمح أبداً لليهود بالإقامة الدائمة في القدس المسيحية.

إن قداسة المدينة تعني دمار الديانة الوثنية وإزالة اليهود من تلك المنطقة المقدسة. ومن المهم أن نلاحظ أن هذا التعصب برهن أنه يؤدي إلى نتائج عكسية. فالمسيحيون الروم الاورثوذكس الذين ينتمون إلى بيزنطة طاردوا أولئك المسيحيين المحليين الذين يختلفون معهم في العقيدة، وذلك في مطلع القرن السابع. فالامبراطور هيراكليوس كان على وشك أن يجبر كل اليهود في الامبراطورية على أن يقبلوا المعمودية ويصبحوا مسيحيين. لكن الجيوش العربية غزت الأراضي البيزنطية في عام 634، فرحب بهم المسيحيون المنشقون وسكان فلسطين اليهود مقدمين لهم التحية كمحررين فهم لا يشعرون بأي ولاء لحكامهم البيزنطيين. حتى إنهم ساعدوا الجيوش الإسلامية بالتجسس لها على أعدائها، وساعدوا في تموين الجيش. إن هؤلاء الرعايا غير الموالين والمتمردين كانوا عاملاً مهماً في الانتصار العربي. ولقد رأينا النموذج نفسه بعد ذلك في زمن الصليبيين. ففي عام 1099 غزا الصليبيون القادمون من أوروبا الغربية القدس في حمام من الدم فذبحوا حوالي 30 ألف يهودي ومسلم في مدة يومين.

وقد روى أحد شهود العيان المسيحيين أن الدماء في الحرم الشريف وصلت إلى ركب الخيل، معتبراً أن الجريمة هي انتصار للمسيحية لأنه أهم حدث في التاريخ العالمي منذ موت المسيح وقيامته⁽¹⁰⁾.

والمسلمون في الشرق الأوسط لم ينسوا ذلك اللقاء الأول الوحشي مع الغرب الصليبي. إذ استمر الصليبيون في جعل حياة المسلمين مأساة، فدمروا جوامعهم وأخذوا يغيرون على السكان المحليين ويضايقونهم بهجمات متكررة طوال قرن تقريباً.

(9) Eusebius, *Proof of the Gospels*. 6:18-23.

(10) Raymund of Aguiles in August C. Kray (ed.), *The First Crusade: The Account of Eye-witnesses and Participants*. (Princeton and London, 1921), 266.

فقبة الصخرة تحولت إلى كنيسة والجامع الأقصى صار القصر الملكي ومن ثم أصبح مقر الداوي (فرسان الهيكل) ثم سجنًا عسكريًا. لكن المسلمين لم يكونوا وحدهم ضحية الصليبيين. إذ إنهم احتقروا واستغلوا أيضا العرب المسيحيين المحليين، ففي عام 1204 نهبوا وسلبوا القسطنطينية مدينة الروم الاورثودكس، وهو عمل شرير وحشي لم تتمكن الكنسية الاورثودكسية من أن تسامحه أو تنساه. أما أولئك الصليبيون الذين استقروا في الأراضي المقدسة فتعلموا أن يكونوا أكثر تسامحاً؛ فالذين ولدوا في الشرق الأوسط أدركوا أن بقاء الدول الصليبية واستمرارها يتطلب منهم أن يتعلموا كيف يعيشون بسلام مع جيرانهم المسلمين. لكن المهاجرين الجدد الذين جاؤوا من الغرب لم يكن لديهم الوقت لتسامح مثل هذا ولا تعايش واقعي. فقد كانوا يعتقدون أن كرامتهم المسيحية تتطلب منهم أن يحاربوا المسلمين حتى الموت وكان عنادهم وتصلبهم هو الذي أدى إلى سقوط القدس الصليبية وأسهم كثيراً في انتصار صلاح الدين في عام 1187م.

وفيما كان صلاح الدين مستعداً بكل توازن ورباطة جأش للهجوم على القدس، كان المسيحيون على حافة الحرب الأهلية، فكان الأكثر تسامحاً منهم يدركون إن عليهم أن يحاولوا عقد سلام، لكن القادمين الجدد من الغرب أصروا على سياسة التحدي التي برهنت إنها انتحارية. ومرة ثانية يبين تاريخ القدس إن تلك الحكومات التي تقترح سياسات متفردة وغير متسامحة والتي ترغب في أن تمنع كل التنافس من المدينة المقدسة لا يطول بقاؤهم فيها قدر أولئك الذين يبدون استعدادهم للتعايش، هؤلاء الذين يملكون نظرة شاملة لقداسة القدس.

وهذا جلي في حالة القدس الإسلامية التي، بعيداً عن الفترة الصليبية الفاصلة والتي تعتبر قصيرة نسبياً، تمكنت من البقاء طوال 1300 سنة، فالمسلمون لديهم معتقدات للجغرافية المقدسة مختلفة عن اليهود والمسيحيين، ذلك لأن الإسلام لا يوجد فيه فصل جوهري بين المقدس والدنس.

فقد كان هدف الجماعة الإسلامية أن يحققوا الدمج والتوازن بين الإنسان واللّه، الداخل والخارج، مما جعل تفرقة من هذا النوع لا عقلانية. وينبغي بذل كل ما في الوسع لتحقيق قدراتها الكامنة المقدسة. إذن ليس هناك موقع أكثر قداسة من الآخر، على الأقل

من حيث المبدأ، ومن حيث الممارسة. فبما أن الإسلام دين عملي، فالمسلمون يعتبرون ثلاث مدن كمركز للقداسة، لأنهم أدركوا أن الناس بحاجة إلى رموز تساعد على تكريس حسّ بالقدس. هذه المدن الثلاث هي مكة والمدينة والقدس. على أية حال، لم تجرِ قط أية محاولة لجعل الجامع مثل الهيكل اليهودي معزولا ومفصولا عن الحياة العادية. وحتى في المدينة، زمن الرسول، لم يكن هناك أي فصل بين المقدس والدنس، بين الروحي والجنسي، بين الديني والسياسي.

لقد عاش النبي محمد وزوجاته في أكواخ صغيرة حول ساحة مسجد النبي، وكانت الاجتماعات واللقاءات العامة تعقد هناك لبحث الأمور الاجتماعية والسياسية والعسكرية والدينية والتداول فيها. وكانت الحياة بكليتها توضع في جوّ القداسة كتعبير عن التوحيد⁽¹¹⁾. وهذا مبدأ مستمر حتى يومنا هذا.

والأشجار، التي كانت محرمة وممنوعة على جبل الهيكل اليهودي، تلفّ الحرم الشريف، والجوامع مليئة بالأضواء، والعصافير يمكنها أن تطير وتحلق خلال أوقات الصلاة. وينبغي أن يدعى العالم إلى داخل الجامع لا أن يترك خارجه.

إن هذه المبادئ كانت أيضاً سائدة زمن القدس الإسلامية ورغم إن القوات الإسلامية لم تفتح القدس حتى عام 638 أي ست سنوات بعد وفاة الرسول، إلا أن القدس كانت مقدّسة بالنسبة إلى المسلمين منذ البدء، حيث أنها كانت القبلة الأولى، الاتجاه الأول للصلاة. فعندما بدأ النبي محمد بالتبشير في مكة وكان أول ما علّم أتباعه أن يصلّوا متوجهين إلى القدس. وكان على المسلمين أن يديروا ظهورهم للعادات والتقاليد الوثنية القديمة في الجزيرة العربية التي تتمثل هنا في الكعبة وأن يتطلّعوا إلى إله اليهود والمسيحيين الذي سيعبدونه منذ الآن فصاعداً.

فالقدس رسمت مرحلة رمزية هامة في المرحلة المؤلمة التي تفرض على المسلمين أن يقطعوا روابطهم مع عادات الماضي المحبوبة. حتى أنهم أجبروا - في مرحلة متقدمة - على أن يرفضوا صلة الدم المقدسة وذلك حين ترك المسلمون قبائلهم وقت الهجرة إلى المدينة ليؤسسوا ويكونوا مجتمعاً جديداً يقوم على العقيدة. ثم عاد الرسول في المدينة

(11) Clinton Bennett, "Islam" in Jean Holm with John Bowker (eds). Sacred Palce (London, 1994), 132-36.

ليجعل المسلمين يصلون متجهين إلى مكة ثانية، إلا أن المسلمين لم ينسوا أبداً الدور الذي لعبته القدس في هذا الصراع للالتحاق بالعائلة التوحيدية. لقد كان حقاً صراعاً كبيراً. إذ واجه المسلمون في المدينة طوال ثمانية أعوام خطر الإبادة على أيدي أهل مكة وكان النبي محمد يعمل بمفرده دون أي دعم من الأديان التي كانت قد تأسست وتعززت. إلا أنه رغم العزلة المفروضة، جاهد طوال 23 عاماً ليصل إلى قلب اللاهوت التوحيدي والتجربة التوحيدية. وقد كان ما حققه انجازاً استثنائياً .

وأنا أظن أننا نرى هذا في رواية النبي عن رحلته الليلية إلى القدس وصعوده إلى السماء (الإسراء والمعراج). أما الرواية المفصلة الأولى لتلك التجربة فنجدتها في السيرة الذاتية التي كتبها محمد ابن اسحق في منتصف القرن الثامن، مع إنها تركز على الآية القرآنية في السورة 17. (12).

وتحكي الرواية كيف أن النبي محمدًا انتقل من مكة إلى جبل الهيكل في القدس مع الملك جبرائيل، ملاك الوحي، في عام 620 أي قبل الهجرة النبوية بعامين. وعندما وصل إلى جبل الهيكل حيّاه كل أنبياء الماضي العظام ورحبوا به وسطهم وقام محمد بتبشيرهم برسالته. ثم بدأ صعوده إلى الحاضرة الإلهية مروراً بالسموات السبع، وفي كل مرحلة مرّ ببعض الأنبياء وتحديث معهم : تحدث مع يسوع المسيح ويوحنا المعمدان، وموسى وهارون ونوح، وعند عتبة السموات التقى بإبراهيم. وما يستوقف القارئ الحديث ويجذبه في الرحلة الليلية هو التعددية السخية.

فمحمد لم يصل إلى جبل الهيكل كمتعبد وحيد، لكن الأنبياء الذين سبقوه رحبوا به بحرارة. وهو لم يخرج هؤلاء الأنبياء السابقين من تلك المنطقة المقدسة بل التحق برفقتهم. وعلى عكس التجربتين اليهودية والمسيحية للمكان المقدس فإن الرؤيا الإسلامية للقدس لم تكن متفردة ومسببة للخلاف والشقاق. بل بدلاً من ذلك كانت إيجابية بالنسبة إلى تأكيدات العادات والتقاليد الأخرى - حيث أن القرآن يكرر أن الوحي الذي نزل على محمد لا يلغي الوحي الذي نزل قبله على أنبياء آخرين بل إنه استمرار لسعي ديني عالمي. فرؤيا محمد الليلية هي رؤيا منسجمة إذ أنه والأنبياء الآخرون يؤكد كل واحد منهم رؤيا الآخر.

(12) Muhammad ibn Ishaq, *Sirat Rasul Allah* in A. Guillaume (trans. and ed.) *The Life of Muhammad* (London, 1955); 186; Quran 17:1.

إن الرواية الدرامية لرحلة النبي من مكة تبين أيضاً توق الرسول محمد لجذب العرب من كل أنحاء الجزيرة العربية، الذين كانوا خارج حدود خريطة الوحي، إلى صميم التقاليد التوحيدية - وهو نفس التشوق الذي تم التعبير عنه في اختيار القبلة الأولى.

ومن خلال الوصول إلى القدس كان محمد والمسلمون يسعون إلى إنهاء انغزالهم ليلتحقوا بالعائلة التوحيدية وكانوا متأكدين من أنهم سيلقون الترحيب. وأنه لمن السخرية أن ننظر إلى الماضي من منظار الحاضر فبدلاً من أن تكون القدس مدينة الوحدة والتفرد أصبحت إحدى أكثر المدن في العالم دموية وطائفية.

عندما فتح الخليفة عمر القدس منتصراً على البيزنطيين في عام 638 كان مخلصاً لتلك الرؤيا الشاملة. وعلى عكس اليهود والمسيحيين لم يحاول المسلمون استثناء غيرهم من قداسة القدس. فقد كان عمر حريصاً على ضمان أن تبقى الأماكن المسيحية المقدسة في حوزة المسيحيين. وعندما كان موجوداً في كنيسة القيامة يوم الفتح وحان وقت الصلاة، دعاه البطريرك صوفرونيوس إلى الصلاة قرب قبر المسيح، إلا أن عمرًا رفض ذلك وخرج إلى خارج الكنيسة وصلى في أحد الشوارع العامة. وقد شرح له إنه إن لم يكن فعل ذلك لعمل المسلمون على إقامة جامع في موقع الصلاة الإسلامية الأولى في القدس وإنه من الضروري أن يحافظ المسيحيون على كنيستهم العظيمة هذه⁽¹³⁾.

ثم دعا عمر اليهود، بعد أن كانوا منعوا من الإقامة الدائمة في المدينة طوال 500 عام، إلى العودة إلى القدس فعادت سبعون عائلة يهودية من طبرية. وأسسوا حياً عند أسفل جبل الهيكل، الذي أصبح الآن الحرم الشريف، تاركين للمسيحيين السيطرة على التلة الغربية في الجزء الصحي من المدينة⁽¹⁴⁾.

ولم يحاول المسلمون، قبل الصليبيين، أن يبنوا جوامع في المنطقة المسيحية من القدس ولم يظهروا أية رغبة لاقامة حقائق على الأرض. وحتى زمن الصليبيين بقيت القدس مدينة مسيحية في أغلبيتها وظل المسلمون أقلية فيها⁽¹⁵⁾. وخلال تلك الفترة تعايشت ديانات إبراهيم الثلاث في سلام وانسجام نسبي.

(13) Eutyches, *Annals*, 16-17.

(14) Moshe Gil, *A History of Palestine, 634-1099*, trans. and ed. Ethel Broido, (Cambridge, 1992), 636-8.

(15) Muqaddasi, *Description of Syria, Including Palestine*, trans. and ed., Guy Le Strange (London, 1896), 37.

وفي زمن الفتح العُمري كان اسم القدس الإسلامي «بيت المقدس»، مدينة الهيكل. والقرآن يتحدث عن الجامع الذي بناه سليمان هناك، فكان المسلمون قد أصابهم الرعب يوم الفتح عندما رافقهم البطريرك صوفرونيوس إلى جبل الهيكل ليشاهدوا حالة ذلك المكان المقدس، الذي ترك مدمراً طول 600 سنة، حجارته تركت حطاماً متراكماً وتجمعت فيه أكوام القمامة. ومباشرة بدأ عمر بجمع الحصى في معطفه وقذف بها بقوة فوق حاجز الجسر في وادي حينوم الأسفل. ثم تبعه أصحابه ونظفوا هذه المنطقة المقدسة وطهروها⁽¹⁶⁾.

ولقد بنى عمر جامعاً خشبياً بسيطاً عند الطرف الجنوبي للمنبسطة على الموقع الذي يحتله اليوم الجامع الأقصى. وإنه لمن السخرية، ثانية، في ضوء النزاع الحالي، أن اليهود كانوا قد رحبوا مهّلين مبهتهجين بهذا المشروع للبناء والاستصلاح، لدرجة أن بعضهم هلّل للمسلمين مرحّبين بهم على أنهم المبشّرين بقدوم المسيح⁽¹⁷⁾.

وقد بدأ أول الأمر أن المسلمين لم ينتبهوا كثيراً للصخرة الكبرى الناشئة فوق منطقة الحرم، إلا أن الأمويين فيما بعد ضمنوها في مسجد قبة الصخرة الذي أكمل بمساعدة المهندسين المعماريين البيزنطيين وبناؤه الخليفة عبد الملك بن مروان في عام 691، وهو العمارة الرئيسية الأولى في العالم الإسلامي. وفي السنوات الأولى، كان اليهود والمسيحيون يفتخرون بأنهم يتصرفون كمعاونين في الحرم وراعين له.

وثانية، على عكس المشاريع المعمارية العدوانية في القدس اليوم، فإن هذا العمل العمراني المبكر كان يتّصف بالمحاولة لتضميد الجروح وانتهاك قدسية الماضي، فقبة الصخرة بيّن الرغبة الإسلامية للاستمرار، متجذرين بفخر في قدسية وحرمة العقيدة السابقة. لقد كان مشروعاً يتصف بالتعاون وحتى بالصدقة بين الأديان الثلاثة. وفيما بعد سوف تبني في الحرم الذي يذكّر بوجود أنبياء آخرين. فبدلاً من أن يستثنوا

(16) Gy Le Strange, *Palestine Under the Moslems: A Description of Syria and the Holy Land from AD 650-1500*. (London, 1890), 134-143.

(17) Bernard Lewis, "An Apocalyptic Vision of Islamic History", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, 13, (1950).

أسلافهم الدينيين في القدس، كان المسلمون يتعلمون أن يوقروهم ويجلّوهم في المكان الثالث من حيث القداسة في العالم الإسلامي.

وهناك أيضاً قبة السلسلة حيث يُظنّ إن الملك داود حاكم أهل إسرائيل، وكرسي سليمان حيث صلى الملك بعد أن انتهى من بناء الهيكل؛ والباب حيث صلى الإسرائيليون طالبين الغفران في يوم كيبور.

ويسوع أيضاً حاسم بالنسبة إلى التعلق الإسلامي بالقدس : فبإمكان الزائرين المسلمين أن يصلّوا في معبدَيْن مقدّسَيْن، في السرداب تحت منصّة الحرم : والمصلّى أي الكنيسة الخصوصية الصغيرة للسيدة مريم ومهد المسيح حيث وضعته كطفل وتحدث بأعجوبة. ومن الحرم يمكن للمسلمين أن يروا قبة كنيسة الصعود إلى جبل الزيتون حيث صعد يسوع المسيح إلى السماء مثل نبيهم محمّد.

وفي هذا الوقت الذي تشهد فيه القدس هذا الصراع المرير فإنه من المؤسف أن ننظر وراءنا إلى الرؤيا المنسجمة تلك. ففي وقت الأزمات، ويمكن أن يكون شافياً وإيجابياً أن ننظر وراءنا إلى جذورنا ونكتشف الحكمة من دروس الماضي وعبره للمستقبل. وفيم نستشرف مستقبل القدس ونفكر فيه ملياً علينا أن نسأل أنفسنا أسئلة صعبة. فحين يطالبون بقداسة القدس، ينبغي على كل من اليهود الإسرائيليين والمسيحيين والمسلمين الفلسطينيين أن يقرروا ما إذا كان احتفاؤهم بقداسة القدس يعني الطرد والتطهير العرقي والقتل والانتحار بتفجير القنابل والغيرة والظلم والعزل، أو أنه سوف يعني العدالة الاجتماعية والسلام والاتفاق والوئام. فمنذ أوائل تاريخ القدس، كانت القدس تعتبر دعوة للعدالة والحب وللإعتراف بالحقوق المقدسة للآخرين.